الإبداع والإتباع في تصور ابن رشيق القيرواني من خلال كتابيه العمدة وقراضة الذهب

Creativity and follow-up in the perception of the son of Agile Kairouani through his two books The Mayor and the cutters of gold

تاريخ الاستلام : 2019/11/20 ؛ تاريخ القبول : 2020/04/04

د. عبد العزيز نقبيل *

قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب واللغات
جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1،
قسنطينة، الجزائر

ملخص

شغلت قضية الإبداع الأدبي أذهان النقاد العرب المتقدمين منهم والمتأخرين، لما لها من أثر بالغ في اكتمال جودة الشعر، ويعنى هذا البحث بدراسة قضية السرقات(الأخذ) في الشعر العربي عند الناقد ابن رشيق القيرواني(ت456هـ) من خلال كتابيه: العمدة في عمل الشعر ونقده، وقراضة الذهب في نقد أشعار العرب، الذين تفرد فيهما بنظرة ثاقبة وواعية في فهمه لهذه القضية التي تعدّ جوهر الإبداع الشعري.

الكلمات المفتاحية: ابن رشيق؛ الإبداع؛ الشعر؛ السرقات الشعرية.

Abstract

The issue of literary creativity occupied the minds of Arab critics, both advanced and late, because of its profound impact on the completion of the quality of poetry.This research is concerned with the study of the issue of thefts (take)in Arabic poetry with the critic IbnRashiq al-Qayrawani (d.456 AH)Through his two books:“alomda”and “alkoradha”,which are unique in their understanding of this issue, which is considered the essence of poetic creativity.

Keywords: Son of Agile ;Creativity ; Poetry ;Poetic Thefts.

Résumé

La question de la créativité littéraire a occupé les esprits des critiques arabes, avancés et tardifs, en raison de son impact profond sur la qualité de la poésie. Et des critiques d’or dans la critique des poèmes des Arabes, qui est particulièrement perspicace et conscient dans sa compréhension de cette question qui est l’essence même de la créativité poétique.

Mots clés: Fils d'Agile ; Créativité, ; Poésie ; Vols Poétiques.

* Corresponding author, e-mail: nekbil.anas@gmail.com

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2020.

مقدمة:

إن قضية الإبداع والاختراع قضية نقدية عالجها النقاد من خلال نصوص من الشعر والنثر حتى ظن بعضهم أن المعاني البديعة المخترعة لا يمكن أن يضاف إليها أو ينقص منها، وهناك من يرى بإمكان تطوير المعنى الأدبي بزيادة أو نقص أو مبالغة.

قضية السرقات من القضايا النقدية والأدبية الكبرى ليس في التراث النقدي الأدبي عند العرب، وإنما في غيرها من آداب الأمم الأخرى، ولا تزال هذه القضية موضع اهتمام النقاد والباحثين المعاصرين. ولا تزال تستنفذ جهود الباحثين لاحتفاء الشعراء بمظاهر الصنعة وعنايتهم بألوان البديع، حيث دارت معركة السرقات الشعرية حول أبي تمام، وقبله حول بشار وأبي نواس، وبعد أبي تمام دارت حول المتنبي وابن الرومي، وقد أشار ابن المعتز في أكثر من موضع: أنّ أبا تمام قد سبق إلى هذه المعاني التي قالها شعراء قبله، وحتى معاني البحتري المسروقة عن أستاذه أبي تمام، والبحتري نفسه اعترف بذلك فهو لا ينظم بيتا إلا وشعر أبي تمام ببالـه[1].

القضية تدور أساسا حول الإبداع الشعري وتطوره، وتحديد الموقف من هذا الإبداع الفني، هل هو مقتصر على صاحبه الأول أو يتجاوزه إلى غيره؟ وإذا كان هذا التجاوز فعلى أي صورة يكون. فهل يكون في اللفظ أو المعنى أو في اللفظ والمعنى معا؟ ولقد ألّف النقاد العرب كثيرا من المؤلفات حول هذه المسالة النقدية، فحددوا المشكلة النقدية وحددوا طبيعتها، ووضعوا لها المصطلحات المختلفة، وتابعها النقاد بالدرس والتأليف، فلم تكن بواعث الكثير منها نزيهة منصفة، وإنما غرضها التشفي. لكن فيما بعد بدأت الدراسات تأخذ بعدا آخر من النزاهة والنضج في جهود نقاد القرن الرابع الهجري كالآمدي والقاضي الجرجاني وابن رشيق[2]. والسرقات قضية ترتبط بعملية الخلق والإبداع الفني وتطوره ومتابعة هذا العمل من حيث التأثير والإتباع والتقليد، ومدى تأثر اللاحق بالسابق، ومن هنا كانت قضية ذات صلة بالعمل الإبداعي الفني. وسنحاول في هذا المقال أن نقف عند هذه القضية عند ناقد أديب ذواق بصير له مكانته في ساحة النقد الأدبي المغربي القديم، وأعني بهذا الناقد ابن رشيق القيرواني.

أولا-السرقات الشعرية:

السرقات الشعرية من أقدم القضايا النقدية التي شغلت اهتمام النقاد وتفاوتت أحكامهم فيها بين التسامح والتشديد، والاتهام بالسرق من المطاعن التي يسهل تناولها، وراجت فيما بعد مع ظهور الشعراء المجددين في العصر العباسي في القرن الرابع الهجري فتصدى لها النقاد بالبحث والكشف عن مواطنها.

ويرتبط مصطلح السرقات في المعاجم اللغوية العربية بالصفات المذمومة، فالسرقة أخذ الشيء خفية وبحيلة[3] وكان استعمالها من طرف النقاد اتهاما للشعراء بالسرقة عيبا يلصق بمكانة الشاعر، ويرمى بالجمود والتقليد والإتباع، في مقابل الابتكار والاختراع، ولذلك كانت جهود النقاد منصبة حول قراءة التراث الأدبي وتمحيصه حتى يسلم من الادّعاء والسرقات، ولقد اهتم النقاد بهذه القضية وأفردوا لها كتبا خاصة كشفوا فيها عن سرقات الشعراء الكبار في العصر العباسي على غرار: أبي نواس، وأبي تمام، والبحتري والمتنبي، وسميت هذه المؤلفات بالموازنات، مثل كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني(ت366هـ) وكتاب الموازنة بين الطائيين للآمدي(ت371هـ) الذي تناول شعري أبي تمام والبحتري مقارنة

وشرحا.

تحدث الآمدي(ت371هـ) عن السرقات الشعرية في سياق موازنته بين أبي تمام والبحتري فرأى أن: السرقات ليست من كبير مساوئ الشعراء بقوله:" إن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين إذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر"[4] وعدّ لأبي تمام مائة وعشرين بيتا أخذ معانيها عن الشعراء، كما تحدث عن سرقاته، وقسمها إلى محاسن ومساوئ، ومن محاسنه إلطاف المعنى وتجويده[5].

في حين ينظر القاضي الجرجاني(ت366هـ) إلى أنها " داء قديم وعيب عتيق ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر، ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه"[6] وسار على خطى الآمدي في معالجته مشكلة السرقات من خلال كتابه الوساطة ورأى أن: "الاهتداء إلى السرقة وتمييز صنوفها من جهابذة الكلام، الذين يستطيعون التمييز بين السرق، والغصب، والإغارة، والاختلاس، والإلمام، والملاحظة، والمشترك الذي لا يجوز ادّعاء السرق فيه المبتذل الذي ليس أحد أولى به وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه، وأحياه السابق فاقتطعه فصار المعتدي مختلسا سارقا، والمشارك له محتذيا تابعا"[7].

فالسرقة لا تقتصر عنده على ما ظهر منها كتشابه الأبيات في الألفاظ أو المعاني، وإنما تكون في الخفيّ من الأغراض والمقاصد، والسرقة الظاهرة ما ظهرت في الصياغة اللفظية أو الجانب الشكلي للنص الشعري كتشابه الألفاظ والعبارات بين النصين الشعريين، فهي سهلة قريبة الاكتشاف، وأما الخفية فتكون في المعاني والأغراض حيث يجتهد الشاعر اللاحق في أخذ معنى من المعاني من شاعر سابق ويحاول إخفاءه، ويضرب القاضي الجرجاني مثلا في أخذ الشاعر كثيّر لمعنى شعر أبي نواس في قوله:

أريدُ لأنسىَ ذِكرهَا فكأنّماَ تَمثَّلُ لي ليلى بكلّ سبيلِ

وقال أبو نواس:

ملْكٌ تَصوّرَ في القلوبِ مِثالهُ فكأنّهُ لم يخلُ منه مكـانُ

فلم يشك عالم في أن أحدهما من الآخر، وإن كان الأول نسيبا والثاني مديحا[8]. فقد سار القاضي الجرجاني على خطى الآمدي في مشكلة السرقات، وقرر أن هذا الموضوع لا ينهض به إلا الناقد البصير. وارتبطت القضية بالابتكار والتقليد، إذ تحرى النقاد من خلالها أصالة الشعر ومدى ابتداعه في فنّه، ومدى تقليده وتأثره بغيره .

ثانيا- السرقات عند ابن رشيق القيرواني(ت456هـ) من خلال كتاب العمدة:

تحدث ابن رشيق عن هذه القضية بشيء من التفصيل والتطبيق في كتابيه: العمدة وقُراضة الذهب، حيث خصص لدراستها ثلاثة أبواب في كتابه الأول، في حين أفرد لها في القُراضة كل بحثه، وقد استوعب جميع الأفكار التي سبقته، وأضاف إليها ملحوظات خاصة ومبتكرة لها قيمتها النقدية. تحدث في الباب الأول من كتابه العمدة عن المخترع أي المعاني التي لم يسبق إليها أحد مثل قول امرئ القيس[9]:

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُهَا سُموَّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ

فالشاعر له اختراعات كثيرة بل هو أول الناس اختراعا[10]. ومن ذلك قول طرفة[11]:

يَشُقُّ حَبابَ الماءِ حَيْزومُها بها كما قَسَمَ التُّربَ المفايلَ باليدِ

أما التوليد فهو استخراج معنى من معنى آخر، أي اقتداء الشاعر بغيره، فإنه لا يعد سرقة إذا كان ليس آخذا على وجهه[12].

ويعد الباب الثاني في العمدة مدخلا لدراسة قضية السرقات عند ابن رشيق وهو باب الاشتراك، والاشتراك عنده نوعان: اشتراك في اللفظ، واشتراك في المعنى أي أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما فيتباعد اللفظان[13] وعند مناقشته لمصطلحات القضية أخذ على الحاتمي(ت388هـ) صاحب الحلية إسرافه في استخدام مصطلحات السرقة المتداخلة إلى حد بعيد، فأكمل ابن رشيق هذا النقص وقام بتحديد هذه المصطلحات والتفريق بينها وعززها بأمثلة مما يدل على دقة منهجه، وإدراكه لقيمة المصطلح في النقد.

ويرى أن البحث في السرقات واسع جدا، وأنه لا يسلم لشاعر إدّعاءه السلامة منها، ورأى أن فيها أشياء غامضة خفية إلا على الحاذق البصير بصناعة الشعر، كما أن فيها أشياء فاضحة لا تخفى على الجاهل، وأشار إلى من سبقه من النقاد في بحث هذه القضية مبديا رأيه فيهم، فذكر الحاتمي، ورأى أنه جاء في كتابه حلية المحاضرة بألقاب محدثة كالاصطراف، والاجتلاب، والانتحال، لكنها ألقاب لا محصول لها عند النظر والتدبر[14]أما القاضي الجرجاني فقد أشاد بنهجه المحقق، ومذهبه المنصف في بحثه للسرقات[15].

وفي بحثه لهذه القضية ساق أقوالا لأستاذه عبد الكريم النهشلي(ت405هـ) مبديا رأيه الذي يؤكد رأي النقاد الذين سبقوه في أن: السرقة لا تقع إلا في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة الجارية في عادة الناس، ويعطي نموذجا نصيا ينسب إلى بعض الحذاق من المتأخرين، يحدد به السرقة بثلاث صور وهي: أخذ المعنى واللفظ، وهو السرقة المحضة، أخذ المعنى مع تغيير بعض الألفاظ ، وهو السلخ، تغيير بعض المعنى بإخفائه وقلبه عن وجهه، وهو الصرف والتحوير[16].

ومما يؤكد نزاهة ابن رشيق ورغبته في الصدق والإنصاف في مبحث هذه القضية إشارته لابن وكيع(ت393هـ) في نقد المتنبي في كتابه المنصف في نقد شعر المتنبي قوله: إنه قدم في صدر هذا الكتاب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا شعراء الصدر الأول وإن سلم لهم ذلك، وقال عن تسميته بالمنصف كتسميتهم اللديغ سليما وما أبعده من الإنصاف[17] ثم يتطرق ابن رشيق إلى أنواع السرقات وألقابها مجتهدا في تعريفها بدقة ومن هذه المصطلحات التي ذكرها في عمدته ما يلي[18]:

-الاصطراف: هو أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ويقسم إلى قسمين:

أ-الاجتلاب أو الاستلحاق: هو صرف الشاعر البيت إلى نفسه على جهة المثل أو التمثّل.

ب-الانتحال: هو أن يدعي الشاعر شعر غيره لنفسه، هذا إذا كان يقول الشعر،أما إذا كان لا يقول الشعر فهو مدّع وغير منتحل. وقد مثل للاجتلاب بقول النابغة الذبياني[19]:

وصَهْباءَ لا تُخْفِي القَذَى وهْوَ دونهَا تُصفِّقُ في راووقِها حين تُقْطَبُ

تَمَزَّزْتُهَا والدّيكُ يدعُو صَباحَهُ إذا ما بَنُو نَعْشٍ دنوا فتَصَوّبُوا

فاستلحق البيت الأخير فقال:

وإجَّانةٍ ريَّا السُّرورِ كأنَّها إذا غَمَستْ فيها الزجاجةُ كوكبُ

تَمَزَّزْتهُا والدّيكُ يدعُو صباحَهُ إذا ما بَنُو نعشٍ دنوا فتصوّبوا

وربما اجتلب الشاعر البيتين على الشريطة التي قدمت، فلا يكون في ذلك بأس كما قال عمرو ذو الطوق[20]:

صَدَدْتِ الكأسَ عنا أمَّ عمرٍو وكان الكأسُ مجراها اليَمِيناَ

وما شرُّ الثَّلاثةِ أمّ عمرٍو بصاحبك الذي لا تُصْبِحينَا

فاستلحقهما عمرو بن كلثوم، فهما في قصيدته، وكان عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبا، وقد يصنع المحدثون مثل هذا[21].

-الإغارة : هو أن يصنع الشاعر بيتا، ويخترع معنى مليحا فيأخذه من هو أعظم منه ذكرا وأكثر شهرة فيروى له دون قائله الحقيقي، مثل إغارة الفرزدق على بيت جميل[22].

تَرى الناسَ ما سِرْنا يَسِيرونَ خَلْفَنَا وإنْ نحن أومَأْنا إلى النَّاسِ وقَفُوا

قال الفرزدق" متى كان الملك في بنى عذرة؟ إنما هو في مضر وأنا شاعرها، فغلب الفرزدق على البيت، ولم يتركه جميل، ولا أسقطه من شعره"[23]

-الغصب: هو أن يأخذ الشاعر بيتا من شاعر آخر عن طريق التهديد فيدفعه إلى التخلي عنه مثلما فعل الفرزدق مع الشمردل اليربوعي في قوله[24]:

فمَا بينَ من لم يُعْطِ سمعًا وطاعةً وبينَ تَميمٍ غيرُ حزِّ الحَلاقِمِ

فلما سمع الفرزدق هذا البيت هدد الشمردل بقوله:" والله لتدعنّه أو لتدعن عرضك فقال له: خذه لا بارك الله لك فيه[25].

-المرافدة أو الاسترفاد: هو أخذه على سبيل الهبة والهدية مثلما أعان جرير ذا الرمة على هشام المرثي حيث طلب منه الفرزدق أن ينشد له مقالا في هشام المرثي فأنشده قصيدته:

نَبَتْ عيناكَ عن طللٍ بحُزْوَى مَحتْهُ الريحُ وامْتُنِحَ القطارا

فقال له الفرزدق ألا أعينك؟ قال: بلى بأبي وأمي، قال له[26]:

يعد الناسبون إلى تميم بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرّباب وآل سعد وعمرا ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرثي لغوا كما ألغيتَ في الدية الحُوارا

-الاهتدام أو النسخ: هو السرقة فيما دون البيت وقد مثل ابن رشيق بقول النجاشي[27]:

وكنتُ كذِي رجلين رجلٍ صحيحةٍ ورجلٌ رمتْ فيها يد الحدثان

وقد أخذ كثيّر شطره الأول واهتدم شطره الثاني حين قال:

وكنت كذَى رجلين رجلٍ صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلّت

-النظر والملاحظة أو الإلمام: هي تساوي المعنيين دون اللفظ مع خفاء الأخذ ومنه تضاد المعنيين مع دلالة أحدهما على الآخر. والاختلاس أو النقل: هو تحويل المعنى ونقله من عرض إلى غرض، كان يصرف من النسيب إلى المديح. والموازنة: هي أخذ

بنية الكلام ولفظه دون معناه. والعكس: هو الموازنة، إلا أنه يجعل مكان كل لفظة ضدها.

-الموارِدة: هي إتفاق الشاعرين في المعنى وتواردهما في اللفظ، وقد جمعهما عصر واحد لم يسمع أحدهما شعر الآخر[28].

وأما الالتقاط، والتلفيق، الاجتذاب، والتركيب: فهو تأليف الشاعر البيت من أبيات غيره على وجه التلفيق والتركيب[29] بعد عرضه لهذه المصطلحات بدأ الكاتب في التفصيل والشرح، فوضع لكل منها مثالا وكانت له مع ذلك بعض الإشارات والتعقيبات، فمثلا نجد ابن رشيق قد نفى الموارِدة التي ادّعاها بعضهم بين امرئ القيس وطرفة بن العبد في قول امرئ القيس[30].

وقوفا بها صحبي على مطيّهم يقولون لا تهلك أسى وتجمّل

وقع مثله تماما في معلقة طرفة إلا أن القافية فيه جاءت و(تجلّد) وحجة ابن رشيق أن طرفة في زمن عمرو بن هند شاب في العشرين وامرؤ القيس في زمن المنذر الأكبر كهل، واسمه وشعره أشهر من الشمس، إلا أن يصح ما ذكروه من أن طرفة استحلف أنه لم يسمع هذا البيت قط فحلف، فحينئذ يكون من قبيل الموارِدة ولو لم يجمعهما عصر واحد، ويسوق قول أبي عمرو بن العلاء حين سئل: أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ. لم يلق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره؟ قال: تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها، ومثله ما أجاب به أبو الطيب حين سئل عن مثل ذلك فقال: الشعر جادة، وربما وقع الحافر على موضع الحافر[31].

يثبت ابن رشيق أن الشاعر المتبع يكون أولى بالمعنى من مخترعه ومبتدعه بشرط أن يجيد في هذا المعنى بصورة من الصور: كأن يختصره إن كان طويلا أو يبسطه إن كان كزّا، أو يبيّنه إن كان غامضا، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا، أو رشيق الوزن إن كان جافيا، كما أنه أولى به إن قلّبه وصرّفه عن وجهه الذي هو عليه إلى وجه آخر غيره. أما إذا ساوى المبتدع، فللمتبع فضيلة حسن الاقتداء لا غير، فإن قصر دونه كان عليه درك التقصير، وكان تقصيره دليلا على سوء طبعه وسقوط همته، وضعف قدرته[32].

ففي هذا النص يبدو رأي ابن رشيق واضحا من هذه القضية، فهو يبدي حرية ،ومرونة، ووعيا راشدا لأبعاد الشعر ويقدر معاناة الشعراء. فتراه لا يضيق الدائرة عليهم ويفسح المجال أمامهم للاحتذاء والاقتداء، ونحن نعلم أن ابن رشيق هو شاعر كذلك يعرف جيدا مسالك ومضايق الأخذ الذي تحتمه طبيعة هذا الشعر كما تفرضه سنن الحياة والتطور والتشابك بين السابق اللاحق، بشرط ألا يكون هذا المجال مفتوحا للسرقة وللأخذ المفضوح المذموم، ولكن للإتباع المشروط الذي يضيف لمسة فنية ويسد ثغرة في الإبداع الشعري عموما، والتأثر والتأثير حتمية في كل الفنون، وهذا يدل على عمق نظرة ابن رشيق ومرونته فيما يتعلق بهذه القضية.

ثالثا-موقف ابن رشيق من قضية السرقات في كتابه قراضة الذهب:

والجدير بالذكر أن ابن رشيق تطرق كذلك لمشكلة السرقات في كتابه قُراضة الذهب، وهذا الكتاب ألّف لدوافع ذاتية تتصل بنفسه وبشخصيته العلمية والأدبية، فقد أُتّهم بأنه قد أخذ معنى بيتين له من معنى بيتين لأستاذه عبد الكريم النهشلي، فانبرى مدافعا عن نفسه دفاعا موضوعيا وعلميا، فجاءت هذه الرسالة في غرضها ردا على المتهم وفي غايتها جوهرة فنية خالدة في النقد الأدبي المغربي القديم.

ناقش ابن رشيق في كتابه القراضة قضية السرقات في اثنتي وعشرين

صفحة من القراضة بدءا من الصفحة التاسعة عشر وانتهاء بالصفحة العشرين بعد المائة، وجزأ السرقات إلى أربعة وعشرين نوعا من أنواع السرقة[33]

يورد بعض ما صنع من قوله:

وكأنما راياته مشهورة يوم اقتحامه

أيدٍ تشير إلى العدوّ وبسلمه أو بانهزامه

يعلق بقوله: ما أكثر هذه الكثرة، وتصرف الناس فيه هذا التصرف لم يسم آخذه سارقا لأن المعنى يكون قليلا ويدعى صاحبه سارقا مبتدعا فإذا شاع وتداولته الألسن بعضها من بعض تساوى فيه الشعراء إلا المجيد فإن له فضل أو المقصر فان عليه درك تقصيره إلا أن يزيد فيه شاعر زيادة بارعة مستحسنة يستوجبه بها ويستحقه على مبتدعه ومخترعه[34]

وإذا كانت المعاني مبسوطة إلى غير نهاية وممتدة إلى غير نهاية على حد قول الجاحظ"إن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير نهاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني متصورة معدودة ومحصلة محدودة.[35]

يتكلم ابن رشيق عن نقل المعنى والصفة بقوله ومن أنواع الأخذ نقل المعنى والصفة كقول عنترة في وصف الذباب[36]:

هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم

ونقل ذو الرمة معنى الصفة إلى الجندب بقوله[37]:

كأن رجليه رجلا مقطف عجل إذا تجاوب من برديه ترنيم

فقد نقل صفة الذباب إلى رجلي الجندب فأحسن الأخذ وكأنه لم يعرض لعنترة في معناه. والصفة التي هي هيئة حركة يدي الذباب في بيت عنترة هي نفسها الهيئة والحركة في وصف رجلي الجندب، والمعنى المراد هو إبراز السرعة في الحركة وهذا ما تحقق في بيتي الشاعرين وبالتالي لا فرق بين نقل المعنى ونقل الصفة.ويستشهد كذلك بقول المتنبي[38]:

حثث كلُّ أرضٍ تربة في غباره فهن عليه كالطرائق في البُرْدِ

وإنما هو من قول ذي الرمة في وصف الحمر الوحشية الذي يقول[39]:

فراحت لا دلاج عليها ملاءة صهابية من كل أرض تثيرها

وعدّ ابن رشيق أن بيت المتنبي منقولا من معنى ذي الرمة لأن المعنى مقصور عليه لأنه يسبق المتنبي شعرا وزمانا ولأن المعنى كذلك يتسم بالغرابة، فلم يسبق أحد ذا الرمة إلى تصوير قطيع الغزلان وهي مدلجة في رخوة تثير فوقها غبارا متطاولا ممتدا في هيئة الملاءة إلا الشاعر عدي بن الرقاع الذي يقول في حمارين وحشيين[40]:

يتعوّران من الغبار ملاءةً بيضاءَ محكمةً هما نَسَجَاها

تُطوى إذا وردا مكاناً محزناً وإذا السنابكُ أسهلتْ نَشَراها

والمعنى يبقى مابين ناقل ومنقول حتى يتبين سبق الشاعر زمنا، والشاعران عدي من الرقاع، وذو الرمة من شعراء صدر الإسلام وبني أمية والأسبق رزمنا ذو الرمة لأنه مات سنة سبع وعشرة ومائة (ت117هـ) وأما عدي بن الرقاع فقد عاش في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان وبينهما زمن طويل. فمن الواضح أن مقياس النقل عند ابن رشيق يحدده الزمن.

أما نقل اللفظ بعينه إلى معنى موصوف آخر ونقل بعض لفظ البيت ومعناه المشهور المعتاد فقد ورد في كتاب القراضة بشكل موجز ولم يتوسع فيه الكاتب، وكان حري به أن يتوسع في هذا المقياس مقياس الألفاظ والمعاني لأن هذه القضية هي المحور الذي يقوم عليه النص الأدبي وعليه ترتكز خاصية الخلق والإبداع وقد ذكر بعض الشواهد المتعلقة بنقل الألفاظ منها قول امرئ القيس في وصف الديار[41]:

كما خَطَّ عبرانيةً بيمينه بتيماءَ حبرٌ ثم عرّضَ أسطرا

وهو اللفظ الذي أخذ عن ابن المعتز في وصف الحمول والملاحظ في قوله:

بدتْ في بياضِ الآل والبعدُ دونها كأسطر رقّ أعرضَ الخطّ كاتبُه

فأوضح العبارة وأبرز المعنى وتناوله منه أبو فراس في وصفه النيل:

كأنما النيلُ عليه الجسِرُ دَرجُ بياضٍ خُطّ فيه سَطرُ

تطرق ابن رشيق في قراضته لهذه القضية بسرد الشواهد وحدد من خلالها مفهومه للإبداع والاختراع بقوله:"أهل التحصيل مجمعون من ذلك على أن السرقة إنما تقع في البديع النادر والخارج من العادة وذلك في العبارات التي هي الألفاظ"[42] ويعلق على قول المتنبي (أجل الظليم وربقه السرحان) بأنه يأتي بالمعنى في غير اللفظ وزاد زيادة جيدة وإن لم يبلغ صاحب الاختراع الأول امرئ القيس في وصفه الفرس (بمنجرد قيد الأوابد هيكل)[43] فابن رشيق يقصر الأخذ من خلال المعاني المخترعة على العبارات التي هي الألفاظ، أما المعنى فيبقى لمخترعه الأول وهذا من أمر معروف لأن سرقة المعاني المخترعة سرقة مفضوحة لا يستطيع أحد إخفاءها مهما بلغ من قدرة التصرف في عملية الأخذ، وعلى الرغم من ذلك نجد المعنى الواحد يتناقله الشعراء جيلا بعد جيل فيبدع ناقل ويزيد ناقل وينقص ناقل الأمر الذي فتح للنقاد دراسة الأدب وبخاصة فن الشعر من خلال المعاني المخترعة وقدرة التصرف من الشعراء الذين تناقلوا هذه المعاني.[44]

فليس كل تشابه في تناول المعنى بين شاعرين يعد من السرقة، وإنما السرقة كما يراها الآمدي وابن رشيق تكون في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم[45] ويبقى الإبداع دائما لصاحبه، ويبقى الإتباع في غير أخذ أيضا لصاحبه لأن الإبداع قاسم مشترك بين الشاعرين، والشاعر اللاحق هو من يبدع في معناه الذي استعان به بمعنى غيره، وبهذا يكون أخذه استعانة لا سرقة مع الأخذ في الحسبان لأن المعنى المتبع غير المعنى المبتدع

وقد أثبت صاحب القُراضة عمق فهمه ودقة إحساسه وسلامة ذوقه وصدق نظره وجرأة موقفه، فيبين أن المعاني المشتركة المشاعة بين الناس ليست لأحد دون أحد، إلا معنى مخترعا بديعا، فصاحبه أولى به، أما ما جاء به من قبيل المعاني المشاعة على سبيل توارد الخواطر فلا أحد يزعم القول بأنه ضرب من السرق أو الأخذ غير أن أهل التحصيل مجمعون من ذلك على أن السرقة إنما تقع في البديع النادر الخارج عن العادة، وذلك في العبارات التي هي الألفاظ لا ما كان الناس فيه شرعا واحدا من مستعمل اللفظ الجاري على عاداتهم وعلى ألسنتهم، وكذلك ما كان من المعاني الظاهرة، فإنها معرضة للأفهام مسلطة على فكر الأنام، ومن ههنا قلّ اختراع المعاني، وقلّت السرقات فيها وصارت إذا وقعت أشهر[46] فنصب امرأ القيس أميرا للشعراء، واعتبر عمله الشعري مخترعا بديعا، ثم أبان عن موقف الشعراء بعده منه ومدى تأثرهم فيه.

وكتاب القُراضة هو كتاب في النقد التطبيقي أفرغ فيه ابن رشيق خبرته وتجاربه ومعارفه الخاصة في موضوع الإبداع والخلق الشعري مركزا النظر جيدا في إبداع الشاعر وتأثيره فيما بعده ومدى أخذهم عنه كما يضم الكتاب رؤى وخطرات نفسية خاصة بذات مؤلفها، مما له دلالة كبيرة في العمل الأدبي والفني في مشكلة السرقات بوجه خاص[47]. وهذا يدل على عمق فكر ابن رشيق ووعيه بالعملية الإبداعية، فالشاعر قد يأخذ المعاني فيضعها في قالب جديد خاص به يدخل هذا في إطار الخلق والإبداع الأدبي، وهو يأخذها بوعي أو دون وعي نظرا لما يكتنف ذاكرته من معارف وتجارب يوظفها عندما يأتي له موضعها، ولأن المعاني المشاعة بين الناس قدر مشترك بين الناس إلا معنى بديعا مخترعا فصاحبه أولى به.

الخاتمة:

وفي الختام يمكن القول: إن ابن رشيق اعتنى بهذه القضية وأفرد لها حيزا معتبرا في نقده من خلال كتابيه العمدة والقراضة، لكن هذه المساحة لم تكن مساحة جمع ولم ما هو متفرق في المؤلفات التي سبقته بل هي مساحة محايثة ومعاينة ومحاورات، فهو يقدم القضية جامعا بين الآراء الكثيرة المختلفة، فمخر في مؤلفيه عباب قضية السرقات ورصدها عند الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى عصره متوقفا عند الكثير من الشواهد التي تتوافق مع رأيه فيطرحها ويناقشها قبل أن يصل إلى رأي يراه مناسبا وهو المنهج الذي يتبعه في ما يناقشه من قضايا نقدية فهو منهج ينم عن وعي نقدي و حس تقويمي وظفه في إطار التأصيل التراكمي لصورة المصطلح النقدي.

إن ابن رشيق القيرواني قد اقتفى خطى النقاد المشارقة في تناوله لموضوع السرقات، فجمع الروايات والأخبار التي سبقته، وظهر جهده في الجمع والتنسيق، وإظهارها بقالب متسم بسمة ابن رشيق الشخصية مع إبداء رأيه الخاص واتسمت آراؤه بتمازج المعلومات النقدية والتجربة الشعرية عنده، مما سهل عليه مناقشة آراء من قبله، ولم تكن كل جهوده مقصورة على الجمع فحسب، كما يظن بعض الدارسين وإنما أضاف تفصيلا لمجمل واستيفاء لأقسام بعض الفنون بملحوظات وأراء قيمة تنم عن ثمرة علمه واتساع أفقه ودقة فهمه، وسلامة الذوق عنده، فأعاد جمع ما ورد في قضية السرقات وتميز عن من سبقه بتحديد معانيها وتدعيمها بأمثلة، وحدد المواضع التي يستحسن فيها الأخذ ووضح مواطن الإبداع والإتباع، والأخذ والتأثير.

الإحالات:

(1)-حسين الحاج حسن: النقد الأدبي في آثاره وأعلامه، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط1 ،1996، ص146.

(2)-بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981، ص218، 219.

(3)- عكاوي إنعام فوال: المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط2، 1996، ص579.

(4)- الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة،، مصر، ط4، دت، ج1، ص291.

(5)- ينظر: سامي يوسف أبو زيد: النقد العربي القديم، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط2013،1، ج2، ص154.

(6)- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان،ط1، 2006، ص214.

(7)- المصدر نفسه: ص183.

(8)- المصدر نفسه: ص178.

(9)-امرؤ القيس: الديوان، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2004، ص143.
(10)-ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2001،1،ج1،ص263.
(11)-المصدر نفسه: ص264.
(12)- المصدر نفسه: ص265.
(13)- المصدر نفسه: ص266.
(14)-المصدر نفسه: ج2، ص216.
(15)- المصدر نفسه: ج2، ص216.
(16)-المصدر نفسه: ج2، ص216.
(17)- المصدر نفسه: ج2، ص217.
(18)- ينظر المصدر نفسه: ج2، ص 217، 218 ، 219.
(19)-المصدر نفسه: ج2، ص218.
(20)-المصدر نفسه: ج2، ص218.
(21)-المصدر نفسه: ج2، ص218.
(22)-المصدر نفسه: ج2، ص220
(23)- المصدر نفسه: ج2، ص220.
(24)-المصدر نفسه: ج2، ص220.
(25)-المصدر نفسه: ج2، ص220.
(26)-المصدر نفسه، ج2، ص221.
(27)- المصدر نفسه: ج2، ص222.
(28)-المصدر نفسه: ج2، ص225.
(29)-المصدر نفسه: ج2، ص225.
(30)- امرؤ القيس: الديوان، ص111.
(31)- ابن رشيق: العمدة، ج2، ص225.
(32)- المصدر نفسه: ص226.
(33)-محمد سعد الدبل:المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق، مكتبة الملك فهد للنشر،الرياض،ط2، 2010، ص127.

(34)- ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، دط، 1972، ص18،19.
(35)-الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دط، دت، ج1، ص76.
(36)- ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ص69.
(37)- ذو الرمة: الديوان، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1 ، 1982،ص419.
(38)-المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1983، ص536.
(39)- ذو الرمة: الديوان، ص245.
(40)-ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط1 ، دت، ج2، ص199.
(41)-ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ص73.
(42)-المصدر نفسه: ص21،22.

(43)-المصدر نفسه: ص20.
(44)-محمد سعد الدبل:المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق، ص151.
(45)-الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص364.
(46)-ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ص20.
(47)- ينظر: محمد مصطفى هدارة: مشكلة السرقات في النقد العربي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1975،2، ص119، 120.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة،، مصر، ط4، دت، ج.1
2-امرؤ القيس: الديوان، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 2004.
3-بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1981.
4-الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دط، دت، ج.1
5-حسين الحاج حسن: النقد الأدبي في آثاره وأعلامه، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط1 ،1996.
6- محمد سعد الدبل:المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق، مكتبة الملك فهد للنشر،الرياض،ط2، 2010.
7- محمد مصطفى هدارة: مشكلة السرقات في النقد العربي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط.1975،2
8-محمد سعد الدبل:المقاييس البلاغية والنقدية في قراضة الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيق.
9-المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1983.
10- سامي يوسف أبو زيد: النقد العربي القديم، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط2013،1، ج2.
11-ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، ط1 ، دت، ج.2
12-عكاوي إنعام فوال: المعجم المفصل في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ،ط2، 1996.
13-القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان،ط1، 2006.
14-ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد عبد القادر محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2001،1،ج.1
15-ابن رشيق: قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق الشاذلي بويحي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، دط، 1972.
16-ذو الرمة: الديوان، تحقيق عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط1 ، 1982.